بين العلم والسحر

(١) هل من جديد ؟

ما أبدع قول القائل

سئمت كل قديم عرفته في حياتي
أن كان عندك شيء من الجديد فهاتِ

ولكن اين الجديد ؟ لا جديد تحت الشمس

(٢) قدم الاختراعات الحديثة

وماذا أنت قائل ، اذا عرفت أن احدث الاختراعات التي نباهي بها مغرورين حاسبين انها لم تخترع الا في أيامنا هذه ، ليست وليدة أفكار هذا العصر ولكنها قديمة عريقة في القدم

اليس البخار والكهرباء والصور المتحركة والطيارات والبارود هي المخترعات والا كتشافات التي مبزت حضارتنا الحالية عن سواها من الحضارات القديمة ؟ أليست تتوارد على الخواطر كلما ذكر اسم التقدم والرقي وتتخذ أدلة على صحة ذلك

ولكن أتعلم ان الاقدمين قد اهتدوا الى كثير من مكتشفاتنا واختراعاتنا الميكانيكية ، كقطار البخار مثلا منذ أجيال عدة قبل المسيح

ربما كنت لا تعلم ذلك ، فان جل هذه الاختراعات لم يطل بقاؤها ولم يتح لها أن تتداولها الايدي وتستوعبها العقول مدة طويلة

على ان ما تقوم به الحكومة الايطالية في هذه الايام من تقرير مبلغ كبير من المال لازاحة الستر في مدينة « هركيلانيم » قد أنار الطريق للعلماء وكشف لهم عن مخترعات علمية وجدت من ألفي سنة خلت ؛ وقد تجلى للباحثين من الآثار الفخمة الرائعة ما بهر أبصارهم وحير ألبابهم وفاق كل حسبان قدره المهندسون وعلماء الآثار وزاد علمهم بالحياة القديمة ومدى تقدمها زيادة عظيمة

لقد رأوا أن الاختراعات التي نفخر بها اليوم من تقدم مصانعنا واضاءة محالنا وانتظام بريدنا وكل مجلبات الراحة عندنا كانت تستخدم في تلك الازمان الغابرة ،

ولكن باسم آخر ، غير اسم العلم ؛

نعم كانت تستخدم باسم السحر ، تقنع الناس بقدرة الكهان وتفوقهم عليهم ، بما كانوا يظهرونه أمامهم من الاشياء الخارقة ، والمعجزات المدهشة

والحق ان الكهان قد أجهدوا أنفسهم أيما اجهاد ، وتكبدوا من العناء والنصب في الوصول الى هذه النتائج الباهرة ، توصلا الى خداع الجاهلين والاحتيال على اقناعهم ، والظفر بتصديقهم !

وثم كانت هذه الاختراعات من الاسرار الخاصة التي لا تعدو جدران المعابد والهيا كل ، ولم تصبح سرا مذاعا يعرفه الجمهور

فالكهان القدماء قد توصلوا الى الاهتداء الى كل فرع ومبدأ من مبادىء العلوم الحديثة واستغلوه استغلالا عمليا ، مدفوعين الى الاستنباط والاختراع بدافع الحاجة الشديدة الى الاحتيال على الناس وخداعهم

فلما اهتدوا الى تلك القواعد العلمية الدقيقة ، احتفظوا بها كل الاحتفاظ ، فلم يطلعوا عليها أحدا ، ضانين بسرها المكنون ان يذاع أو يعرفه سواهم ، فاذا عرضوها أمام الناس فانما يفعلون ذلك باسم « الاسرار » أو « المعجزات »

نبي العلم

ولقد تنبأ « روجر بيكون » نبي العلم في القرون الوسطى ، فأخبر الناس في أوائل القرن الثالث عشر ، اخبار الجازم المستيقن أن أكثر مخترعاتنا الحديثة كالسفن البخارية والسيارات والطيارات ونحو ذلك قد كان معلوما للقدماء

ولقد أكد للناس أن هذه الاشياء كانت مألوفة عندهم وانها ليست بحال ما غريبة عنهم

لقد عرفت فوائد البخار ، وانتفع بها في « بابل » في أوائل القرن الثامن عشر قبل المسيح ، وهناك ، كنت ترى الآلهة في هياكلها ومحاريبها تهز رؤوسها أو ترفع اذرعتها ، محركة ايديها تارة وفاتحة عينيها تارة أخرى

والسر في ذلك ان في أسفل محراب الاصنام صندوقا معدنيا أو حوضا مختفيا بحيث لا تراه العيون ، وان بهذا الحوض أنبوبة متصلة بموقد النار المنصوب امام

هيكل العبادة ، وأنبوبا آخر متصلا بتمثال الاله (الصنم) وقد ركب هذان الانبوبان تركيبا ميكانيكيا دقيقا ، وأحكما احكاما

وقبيل البدء في اظهار المعجزة ، يصبون في ذلك الحوض المعدني ماء ساخنا ، ثم يضعون الفحم في الموقد المواجه للصنم ، وهذا الموقد كما أسلفنا متصل بالانبوب الى الحوض ، فمتى أوقدوا الفحم ، انبعث البخار من الماء الساخن ، فضغطه صوب الصنم ، فحرك يديه أو هز رأسه أو فتح عينيه : فظن من يراه أن به حياة ، وما به من حياة ، ولكنه ضغط البخار وحده

ولقد كان (بوستريتش) صنما مشهورا لدى التيوتون في المانيا ، وقتما كانت غارقة في ظلام البربرية والجهالة ، ولم تكن أعماله ومعجزاته الخارقة ناجمة عن شيء غير البخار ذلك انه كان مصنوعا من المعدن ، وانه كان أجوف الرأس مركبة عيناه وفوه من صمامات (سدادات) خشبية متحركة غير مثبتة

فمتى اوقدوا الفحم فوق رأسه ، سخن الماء الذي بداخله فاندفع البخار المضغوط يتلمس مخرجا له ، فحرك العينين والفم ، فخال الناس ان الاله شاخص اليهم ببصره وانه يتمتم لهم بضع كلمات :

معجزات أخرى

وقد وصف كاتب ومهندس يوناني من اهل القرن الاول الميلادي قاطرة بخارية نعدها الاولى من نوعها ، كما حدث عن تماثيل كانت تمج المياه من أفواهها ، وحيات معدنية كانت تفح فحيحا صناعيا

كذلك حدثنا ذلك العالم عن البراعة النادرة التي تنم عليها دقة معرفة الاولين بطريقة استعمال السوائل واستيعاب خصائصها واضطلاعهم بعلم الغازات ومزاياها الميكانيكية والانتفاع بنتائج ذلك في الهياكل والمعابد اليونانية قال :

ولقد كانت تفتح الابواب دون أن تمسها يد كما لو ان الآلهة تفتحها

وعلة ذلك ان النار التي يشبونها فوق المذبح تدفع الضغط الى الانبوب المتصل بالحوض المعدني وذلك يدفع الضغط الى لولب متصل بالباب فيفتحه بقوة الضغط عليه

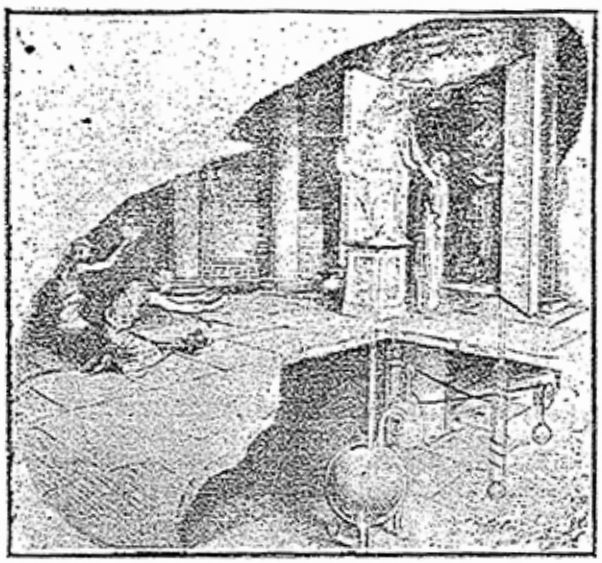

هكذا كانت تفتح دور الهياكل اليونانية دون ان تمسها يد انسان كأنما تفتحها قوة الالهة حين يبدأ الكاهن باضرام النار في المذبح

فاذا هبت النار خف الضغط فعاد الباب الى ما كان عليه من ارتاج ، ومتى رآه الناس في حالي فتحه واغلاقه دون ان يلمسه انسان حسبوا ذلك معجزة من معجزات السحر وليست في حقيقتها الا ظاهرة من ظواهر العلم ومعجزاته وحده

ولا تنس ان المصاصات التي نستعملها اليوم في جذب الماء ورفعه الجبال قد كانت تستعمل في تلك الايام في اجواف الطيور المصنوعة فتمكنها من شرب الماء بأفواهها كأنما هي طيور حقيقية

معبد الاسكندرية ـ المرآة المقعرة

وقد وصف (دامسكوس) فيلسوف دمشق الذي تلقى علومه في اثينا في القرن السادس من الميلاد ـ وشرح ما يلقاه الانسان في معبد اسكندري بمصر

يبدو امامك في أول الامر فوق حائط المذبح نور ضئيل ثم يزداد النور ويتعاظم الضوء حتى يتخذ امام عينيك شكل وجه ، يدخل في نؤادك الروعة لقداسته وغرابته ، عليه سيما الجد والدعة بل والجمال أيضا

وانما جاء هذا التباس من وضع وجه يشبه الوجه الذي ارتسم أمامك في حجرة خفية مظلمة ، وقد أمسك الكاهن (كما تراه في الصورة) مرآة مقعرة في يده وهي التي

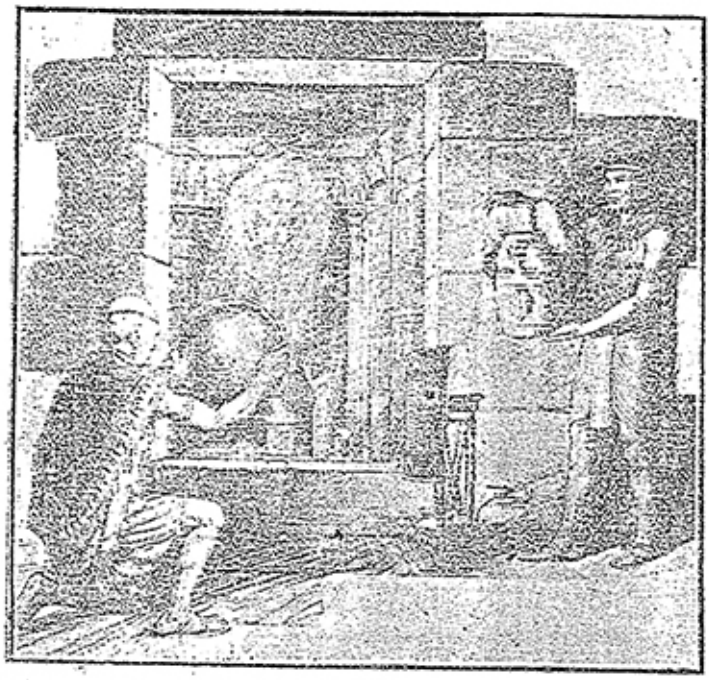

صورة كاهن مصري ماسك بيديه المرآة المقعرة التي تنعكس عليها صورة الآلة من الحجرة المظلمة المجاورة فتبدو للناظرين جلية واضحة بفضل المرآة المقعرة

تنقل الصورة المعكوسة ، الى الصورة الواضحة امامك

وهذه ظاهرة ربما شاهدتها بنفسك وأنت جالس في منزلك في غرفة مظلمة مقفلة حينما تشرق الشمس خارجها ، ساطعا ضوءها بشدة ، فان ما يمر من الاشياء خارج الحجرة — في الشارع — ينفذ داخل الحجرة من أحد خروق النافذة الضيقة فترتسم الصورة أمامك على الغرفة

ولا تنس فعل البخور والدخان حين يختلط بهذه الصور في وسط تلك المعابد المقدسة ، وافتنان اولئك السحرة في اكفان تلك المرايا المقعرة العاكسة في تلبيس الحق بالباطل ، فلا يرى الناظر إلا اشباح الاصنام متحركة كأنما هي حية مكتملة الحياة ، وكأنما أنت تشهد رؤية سينما حديثة ما تراه في هذه الايام

(٦) اليمامة الطائرة

وقد اخترع عالم يوناني في سنة ٤٠٠ قبل الميلاد يمامة قادرة على الطيران، ولكنها اذا هبطت لا يمكنها ان تعاود فعلها ، الا اذا أطارها صاحبها بنفسه

وقد علّلها بعض العلماء الاقدمين بأنها معمورة بروح خفي ، ولكن عالما آخر هو (بوليوس) علل طيرانها بوجود الآلات الخفية التي بداخلها ، وليس يخفى علينا الآن ان مثل هذا الطائر لم يكن الا نوعا من الطيارات ، وان ذلك (الروح) الذي يبعثها الى الطيران ليس الا غازات الهواء المضغوطة التي تدفع الجهاز الى الارتفاع

* * *

ولا تنسَ النسر الطيار الذي اخترعوه وصنعوه من الحديد وأطاروه بمرأى من الامبراطور « مكسمليان » ودار حوله محلقا ثلاث مرات

(٧) الطيارات القديمة

ومتى كان الشيء بالشيء يذكر ، فليس يسعنا اغفال ذكر تمثال الاله (ابولو) الذي كان يعرضه قسيس اليونان في الاحتفالات الدينية العامة أمام الناس منذ ٥٠٠ سنة ق . م . فاذا اجتمع الناس ، ارتفع التمثال امام اعينهم في الفضاء حتى اذا غاب بدأ يهبط ثانية امام اعينهم على اكتاف السحرة ، وقد كان هذا التمثال اجوف ممتلئا بالغازات الخفيفة القادرة على رفعه في الجو مدة قليلة

العربة الطائرة التي كان يستعملها اليونان في احتفالاتهم الدينية من أكثر من عشرين قرنا وفي أعلاها جعبة تحوى الغازات التي تطيرها وكانوا يوهمون العامة بانها تطير بفضل اله صغير داخل تلك الجعبة

ولكن أعجب من ذلك

واغرب ، العربة الطائرة التي يقودها الساحر في اجواز الفضاء ، كما يقول المؤرخون وقد وضع في أعلاه (اله صغير) لف في عيبة (١) مرتفعة ، ولا جرم كان ذلك الاله الصغير غازا يملأ اجواز تلك العيبة ، وعلى جانبي تلك العربة اجنحة قوية محكمة التركيب دقيقة الصنع تديرها آلات قوية

(٨) اختراع البارود

ولعلك تذكر ان اختراع البارود كان في الصين منذ أجيال عدة قبل تأسيس الامبراطورية الرومانية في سنة ٣٠٠ ق . م وان السحرة كانوا يعرضونه كما تعرض المعجزات في احتفالاتهم الدينية ، وقد كانوا يحسبون ان الامبراطورية قد تلقت حصره من ملك سماوي

(٩) خاتمة

وجماع القول ان رجال الدين القدماء كانوا يبذلون من ضروب العناء والوان التعب في سبيل التأثير على العامة واقناعهم بمقدرتهم وتعاليمهم الدينية بمقدار ما يبذله علماء اليوم في سبيل تقدم العلم !

فباسم السحر والطلاسم والدين كانوا يصلون الى تلك النتائج الباهرة في غابر الزمان ، وباسم العلم والبحث يصل العلماء الى نفس هذه النتائج اليوم غير ان تلك النتائج كانت اسراراً استأثر بها الكهان أما هذه النتائج فملك مشاع للانسانية جمعاء

لحب ديني وايماني

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي ... اذا لم يكن ديني الى دينه داني
وقد صار قلبي قابلاً كل صورة ... فمرعى لغزلانٍ ودير لرهبان
وبيت لاوثان وكعبة طائف ... وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت ... ركائبه فالحب ديني وايماني

محيي الدين بن عربي

(١) غرارة ـ جعبة